المخزن والزعامات المحلية بتافيلالت قبيل الاحتلال الفرنسي الثوابت والرهانات

محمد بوكبوط

تروم المساهمة إثارة جوانب من رهانات المخزن المركزي وممثله بتافيلالت وتدبيره لمسألة الزعامة في الواحة، ومواقف القبائل والزعامات الصوفية المحلية، وكيف آل الوضع إلى تجاوز خليفة السلطان بالجنوب الشرقي وقيام زعامة محلية رفعت راية الجهاد وانخرطت في تدبير شؤون الواحة مما أثر في أوضاعها إلى أن احتلت بداية سنة 1932.

بداية، لا بد من الوقوف عند الخصوصية الجغرافية والبشرية لمنطقة تافيلالت باعتبارها واحة تضم ساكنة القصور المستقرة من الفلاحين والحرفيين والتجار، تحيط بها مجالات شبه صحراوية تجوبها قبائل رحل من أهل الظعن والانتجاع، منتظمة في اتحاديات كبيرة هي اتحادية ذوي منيع العربية واتحاديتي آيت عطا وآيت يافلمان الأمازيغيتين، خاضت نزاعات مريرة وشكلت أقطاب توازن قبلي وحربي انتظمت ضمنه ساكنة قصور تافيلالت من المستقرين، مما أثر بعمق على واقع الواحة السياسي وتحكم إلى حد بعيد في قضية الزعامة المحلية، ذلك أن درجة التطور الذي بلغته أغلب قبائل هذه الاتحاديات ونمط عيشها القائم على الترحال المُجَيَّش المعتمد على الإغارة والنهب والتغريم، كل ذلك ساهم في اعتقادنا –إلى جانب عوامل أخرى سنتناولها– في الحيلولة دون قيام زعامات قبلية محلية قوية على غرار ما حدث في مناطق مختلفة من المغرب أشهرها الأطلس الكبير الجنوبي والغربي.

علاوة على هذه الخاصية المرتبطة بالواقع القبلي، تنفرد تافيلالت بخاصية هامة وهي كونها مهد الدولة العلوية وموطن العائلات الشريفة، ومن ثم حرص السلاطين على تعيين خلفاء لهم من آل البيت العلوي يستأثرون برمزية الزعامة في المنطقة بأسرها. غير أن هناك مفارقة في هذا الصدد، وهي أن كون تافيلالت موطن الشرفاء العلويين جعل علاقاتها مع المخزن المركزي ذات طبيعة خاصة، بسبب توجس السلاطين من احتمالات قيام أحد رموز البيت العلوي بالتمرد والقيام طلبا للملك، وقد عرفت تافيلالت خلال تاريخها الحديث العديد من تمردات الشرفاء، خصوصا أن السلاطين المتعاقبين كانوا ينفون الأمراء من ذوي الطموح السياسي إلى هذه المنطقة النائية حيث يوضعون تحت المراقبة ويغدقون عليهم العطايا لكي يأمنوا جانبهم. ولعل هذه العوامل وغيرها قد أسفرت عن واقع سياسي آخر ميز تافيلالت، وهي النزاعات المزمنة بين العائلات والشخصيات العلوية بالواحة، فاجتهد كل فريق في التآمر على الآخرين بنسج تحالفات مع القبائل الرحل والقصور المجاورة، بل حدثت تقاطبات داخل القصر الواحد من قصور الشرفاء، مما حَدَّ من إمكانية قيام زعامة محلية قوية على يد أحدهم.

ومما له دلالته في هذا الباب تبوء مولاي الرشيد بن سيدي محمد بن عبد الرحمان بن هشام منصب خليفة السلطان طيلة عهود السلاطين محمد الرابع و الحسن الأول وعبد العزيز وعبد الحفيظ إلى أن توفي في يناير 1912. كتب عنه المختار السوسي يقول : **«كان رحمه الله أسدَ تلك الناحية وقطبَ سياستها، فإليه ومنه كل ما يدور هناك حول أهل تافيلالت والقبائل المجاورة لها، وفي يده القوة المخزنية وكلُّ مكلَّف من جهة السلطان هناك يكون تحت إذنه، وله حاشية من العبيد الملازمين له ولموكبه نحو مائة من الفرسان والمشاة. وكان آيت عطة وذوي منيع تنقادان له انقيادا لحسن معاملته معهم وأمثالهم»**[1]، ويردف **«وقد كان رحمه الله سياسيا محنكا يعرف من الأمور ما لا يعرفه غيره هناك»**[2].

وبسبب هذه المكانة تشي بعض الوثائق بتوجس المخزن من نفوذ وجاه الخليفة مولاي رشيد وبالتالي ضرورة مراقبته، نستشف ذلك من رسالة مخزنية إلى القائد

(1) **المعسول**، ج. 16، ص.348 .

(2) نفسه، ص.353 .

مسعود الشباني جاء فيها : «وصلنا كتابك صحبة كتاب سيدنا أيده الله في شأن سيدنا مولاي رشيد حفظه الله، وعرفنا ما أثنيت به على جنابه وما وصفت به سيادته من المحبة وتمام المروءة وحسن السيرة، والصبر وتحمل كلفة الأضياف والقيام بعادات سيدنا أيده الله، وما يقاسيه في ذلك حسبما سطرته، ولا نشك فيما أثنيت به على سيادته ووصفته به والدر من معدنه... وأنت جزاك الله عن التنبيه خيرا، آمين وعلى المحبة والسلام، في 2 رجب الفرد عام 1292»(3).

وبحكم بعد المسافة بين حواضر المخزن في الغرب وتافيلالت ومن ثم صعوبة تثبيت نفوذ المخزن وسلطته، لم يجد السلاطين بدا من استمالة أعيان بعض القبائل المحيطة بالواحة، لتكون إمكانيات قبائلهم بمثابة رادع لأي تطور خطير يمس مصالح المخزن الحيوية، وأبرز مثال على ذلك تدابير الحسن الأول مع آيت عطا، فرغم المشاكل السياسية التي سببها ضغط هؤلاء على واحات تافيلالت وزيز الأوسط، نجح السلطان في كسب هذه القوة القبلية على الأقل خلال حركته إلى المنطقة إلى حد وصفهم «بخدامنا آيت عطا»، إدراكا منه أن تعاون هذه القبيلة أفضل من شد الحبل معها في هذه المنطقة الحساسة.

لكن يجدر التنبيه في هذا الصدد إلى أنه في الوقت الذي حرص فيه المخزن على تعيين قياد من ذوي منيع لحسابات سياسية ودبلوماسية معروفة متصلة بالحدود، لم يقم بالمثل مع آيت عطا، بحيث لم يقلد أيا من أعيانهم منصب قائد رغم اعتبارهم خدام المخزن.

ويبقى أنه رغم ثوابت المخزن المتمثلة في الحفاظ على المكانة السياسية للخليفة، وتدبير توازنات القوى القبلية في المنطقة، فإن بعض السلاطين فوضوا سلطات خاصة لقياد أرسلوا في مهمات حربية وسياسية محددة، مثال ذلك في الفترة التي تعنينا قيام الحاجب باحماد سنة 1896 بإرسال العربي المنيعي سعيا لوضع حد للاقتتال بين آيت خباش وآيت يافلمان عقب أحداث شهدها سوق أبوعام، وقد صحب المنيعي قوة من 400 رجل أغلبهم من ذوي منيع وبعض رجال المدني الكلاوي لإعادة الهدوء إلى الواحة، وتمكن بالفعل من الحصول على هدنة بين الطرفين لكنها لم تدم طويلا، إذ سرعان ما تجدد الاقتتال مما اضطر باحماد سنة 1898

(3) المختار السوسي، **مصدر سابق**، ص. 351.

إلى إرسال مولاي محمد الأمراني (ابن أخت السلطان) على رأس قوة من 1600 رجل وبصحبته المدني الكلاوي[4].

يعكس هذا الوضع حقيقة سياسية بارزة وهي أن الأحداث تجاوزت في فترات الأزمة بالجنوب الشرقي الخليفة مولاي رشيد رغم ما أحاط بمنصبه كخليفة من رمزية، ومن ثم ينتصب التساؤل عن عوامل افتقاره إلى وسائل فرض السلطة التي توفرت لكبار القياد مثلا، وانتظار المخزن المركزي تأزم الأوضاع لإرسال قوات متواضعة ينحصر دورها في إعادة توازن القوى إلى سابق عهده. ويتضح من وقائع تافيلالت والجنوب الشرقي برمته أن نجاح مولاي رشيد في البقاء كزعيم محلي رمزي يمثل سلطة المخزن طوال نصف قرن تقريبا لم يُعْزَ لممارسة السلطة الفعلية والقيام بدور الزعيم المحلي القوي، بل حافظ على مركزه بفضل حنكته في التعامل مع ثوابت المخزن المركزي ورهانات مختلف القوى الفاعلة في الجنوب الشرقي.

وفي سنة 1900 وفي خضم الوضع المضطرب بالجنوب الشرقي على غرار باقي البلاد، تم تكليف القايد المدني الكلاوي بتوجيه حركة إلى تافيلالت لفرض الهدوء وإخماد غليان القبائل أمام التهديد الاستعماري. والراجح أن الكلاوي حاول استغلال الفرصة لإثبات فعالية دوره كزعيم محلي قوي ومن ثم توسيع منطقة نفوذه، لكن رهانات كثيرة حالت دون ذلك، أهمها في اعتقادنا ثقل الأسر والشخصيات العلوية بتافيلالت وعلى رأسها مولاي رشيد وعدم قبولها لسلطة قبلية أو مخزنية خارج دائرة أفراد الأسرة الشريفة، إضافة إلى شدة مراس القبائل المحيطة بالواحة وشراسة معارضتها لنفوذ آل الكلاوي، مما يفسر كثيرا من الوقائع السياسية والحربية في تافيلالت قبيل الاحتلال أرخت بظلالها على مسألة الزعامة.

ومهما يكن فإنه عقب توقيع اتفاقيات 1901 و1902 التي اغتصبت فرنسا بموجبها مناطق الساورة وتوات، كان مولاي رشيد لا يزال في منصبه بتافيلالت «**منشغلا بدون شك بأموره الخاصة. وقد اتبع دائما تقريبا سياسة عدم التدخل في شؤون الساكنة التي اعتبرته ممثلا نزيها لأمير المؤمنين، ثم إنه لم يكن يتوفر على الإمكانات المادية لسن سياسة غير تلك التي نهجها**»[5].

---

(4) Ross Dunn, *Resistance in the Desert*, London, 1977, p. 166.
(5) A.G.P. Martin, *Quatre siècles d'histoire marocaine*, éd. La Porte, Rabat, 1977, p. 367.

ومن اللافت أيضا أن الثقل السياسي للشرفاء والنظام الاجتماعي القائم بالواحة وجوارها ساهما إلى حد بعيد في تقاطب اجتماعي سياسي مهد لبروز زعامة بديلة بفضل تبنيها خيار المقاومة، ذلك أن تردد مولاي الرشيد(6) والمواقف المهادنة للمخزن المركزي أمام اغتصاب التخوم الشرقية وازدياد ضغط الرحل على الواحة نتيجة اغتصاب مجالاتهم الصحراوية، كل ذلك خلخل التوازن الهش في الواحة وزاد من تأزيم الوضع العام، موفرا الظروف الملائمة لكل ذي طموح سياسي يتمكن من استغلال الفرصة، وهو ما فعله مبارك التوزونيني وخليفته النكادي.

والحقيقة أن مجموعة من العوامل المساعدة مهدت لصعود نجم التوزونيني والنكادي كزعيمين طارئين على تافيلالت، أهمها الدور التحريضي الذي اضطلع به شيوخ الزوايا وخاصة الدرقاويون، وفي هذا الصدد يتبوأ محمد العربي بن الهاشمي العلوي المدغري الدرقاوي شيخ زاوية كَاوْزْ بمْدَغْرَةْ مكانة الريادة في هذا الباب، يليه مولاي حْماذْ وْلَحْسَنْ السبعي السغروشني مقدم زاوية ذْويرْة السّبَعْ الدرقاوية جنوب تالْسّينْتْ، ومولاي مصطفى بن الحنفي وابنه بّا سيدي من زاوية جّرَامْنَة بالرّتّبْ.

ومن القضايا التي تستحق تعميق النظر بخصوص الزعامة المحلية في الجنوب الشرقي أن علويي تافيلالت انتظم أغلبهم في سلك المخزن وراء الخليفة، بينما نجد علويي الرّتّبْ ومْدَغْرَة يتصدرون زعامة التيار الصوفي ممثلا في الزوايا، ومن ثم وجدوا أنفسهم في فترات عديدة على رأس حركات شعبية لم يكن المخزن ينظر إليها بعين الرضى، وخاصة الحرْكات الجهادية وما أثارته من مشاكل بالنسبة للسلاطين في علاقاتهم مع فرنسا.

ولعل التفاف القبائل حول هذه الزعامات الصوفية يؤكد مدى استعدادها للانخراط وراء أية دعوة للجهاد ضدا على سياسة المخزن المركزي المهادِنة. وقد

(6) يورد المختار السوسي أنه «اجتمع رأي البرابر في تافيلالت بادىء ذي بدء ليذهبوا إلى بودنيب ليدافعوا عن تلك المدينة، فقال لهم المترجم (مولاي الرشيد) : اتئدوا فإن الحكومة هي التي تقود الجيوش التي تدافع عن البلاد، وهي الآن في مخابرة مع العدو، فلا ينبغي الافتيات في ذلك على الحكومة، فانزلوا عندي هنا وأنا أمون الناس حتى يأتي الإذن من عند ملك البلاد بما يريد، فأبى الناس والدماء إذذاك فائرة ضد الاحتلال، فذهب الجيش رغم هذه النصيحة فانهزم أمام الجيش الفرنسي فاحتل بودنيب». ولعل مثل هذه المواقف من مولاي رشيد هي التي جعلت البعض يتهمه بموالاة الفرنسيين، «فقد سمع من يتهمه بأنه يميل للنصارى، فجمع الناس في جمع فقال لهم : إن هذا الوجه الذي ترونه لا يلتقي أبد الآبدين مع النصارى حتى أموت، فلا تذهب بكم الظنون مذاهبها»، المعسول، ج. 16، ص. ص.352–353.

أدرك مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز هذه الحقيقة، فحاولا تهدئة القبائل بإرسال مبعوثين ورسائل إلى مختلف أعيان وشيوخ قبائل التخوم، وذلك لقطع الطريق على إمكانية بروز زعامة خارج مظلة المخزن.

ومن الأدلة على انزعاج المخزن من احتمال نشوء زعامة محلية قوية موقفه من التفاف القبائل حول دعوة الشيخ محمد العربي إلى الجهاد ضد الفرنسيين في التخوم الشرقية، وممارسة السلطان الحسن الأول ضغوطا على الشيخ لثنيه عن التحريض على المقاومة، مما يعكس عدم تسامح المخزن مع احتمال قيام زعامة محلية قوية من الأسرة العلوية، خصوصا إذا لم تكن على توافق تام مع سياسته، فأحرى وهي تعتنق طريقة صوفية أبانت عن تزعمها لموجات المعارضة لسياسة المخزن، وحاشدة لجبهة عريضة من القوى القبلية الوازنة في الجنوب الشرقي بأسره، بحيث لم يخفِ الشيخ محمد العربي لمبعوث السلطان الذي زاره في كاوز سنة 1888 بأن قبائل آيت عطا وآيت إزدك وآيت مرغاد وآيت حديدو وآيت سغروشن وذوي منيع وغيرها قطعت له وعودا حازمة بحشد 13 ألف مجاهد رهن إشارته، وبأنه بصدد اقتناء وجمع السلاح اللازم للجهاد، بل وجد المبعوث المخزني الشيخ بوعمامة ذائع الصيت في ضيافة محمد العربي.

وبديهي أن مثل هذه القوة الضخمة تشكل خطرا سياسيا كان على المخزن أن يأخذه مأخذ الجد في عهد واجه فيه تحديات هائلة حبلى بشتى الاحتمالات، لكون المسألة مرتبطة بصميم المعادلة السياسية وركيزتها الشرعية الدينية بالبلاد، ما دام معلوما من منظور فقهي أنه يحق للأمة أن تمارس حقها في السيادة حين يخل الإمام بواجبه في الدفاع عن حوزة الإسلام. وتنم اللهجة الشديدة لإحدى رسائل السلطان الحسن الأول عن درجة غيظه من تحركات الشيخ الدرقاوي، إذ جاء فيها : **«ما لي أراك تُكثر الدخول والخروج، وتشتغل بما لا يعنيك وتتخطى إليه الدّرج سعيا في الولوج. فلتشتغل بما يعنيك وإلا فاقرأ والسماء ذات البروج[7] يتبين لك الحال ويتضح لك المقال»**[8].

(7) «سورة البروج : بسم الله الرحمان الرحيم، والسماء ذات البروج واليوم الموعود، وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخذود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمومنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يومنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملكوت السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد، إن الذين فَتَنوا المومنين والمومنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك هو الفوز الكبير، إن بطش ربِّك لشديد إنه هو يبدئ ويعيد» إلى آخر السورة.

(8) أحمد بن قاسم المنصوري، كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، تحقيق محمد بن لحسن، أطروحة دكتوراه الدولة، مرقونة، كلية الآداب بني ملال، 1997، ص. 397 .

غير أن الاحتمال الأسوأ لم يقع بالنسبة للمخزن، إذ لم يَسْعَ الشيخ محمد العربي إلى الانتقال من مرحلة حشد التأييد والتحريض على الجهاد كزعيم صوفي إلى تزعم حركة ذات بُعد سياسي، وبعد وفاته سنة 1892 تنازع أبناؤه على قيادة الزاوية، مما أراح المخزن من تعب الانشغال بشغبها.

لكن تأثير الشيخ محمد العربي لم ينقطع مع موته، بل ظلت دعوته تستقطب العديد من القوى القبلية المتضررة من زحف الفرنسيين، حيث واصل متصوفة آخرون السير على دربه، مستنهضين همم القبائل وحاضين على الجهاد، مما دفع المخزن إلى التدخل بفعالية في المنطقة لفرض هيبته واحترام السياسة الرسمية التي كانت تمليها رهانات دبلوماسية. وفي هذا الإطار قام السلطان مولاي الحسن بحركته إلى الجنوب الشرقي للبرهنة على طول يد المخزن وبسط نفوذه الفعلي على مناطق التخوم الشرقية وخاصة تافيلالت، ومن ثم إعادة ترتيب أوضاع المنطقة بما يتماشى ومصالحه.

والظاهر من خلال التقرير الرسمي عن الحركة الذي أمر الحسن الأول بإرساله إلى مختلف جهات البلاد أن المخزن حقق مبتغاه، إذ يستفاد منه أن القوى القبلية ذات الوزنَ في المنطقة أبانت عن ولائها له وأظهرت الطاعة للمخزن، ومما جاء في الكتاب الشريف : «...**واستقبلنا بجيوش الله المنصورة وجنوده الموفورة قبيلة آيت إزدك الذين هم بيت القصيد وعتبة الوصيد، فسيقت إليهم من الله الهداية وطويت عنهم أعلام الضلالة والغواية، وتلقونا بأوائل بلادهم خائفين وجلين ومن سطوة الله فزعين، فجنحنا للعفو إيثارا له وحرصا على حقن الدماء... فانشرحوا وسايروا ركابنا الشريف في زيهم وجموعهم بسرور ونشاط...ثم ارتحلنا عنهم مصحوبين بكتيبة منهم معتبرة وافرة العدد كثيرة العدد مشتملة على عدد له بال من خيولهم وصناديد رجالهم، وحللنا ببلاد آيت مرغاد فتلقوا ركابنا الشريف بطاعة وخضوع وانقياد، مظهرين الإذعان في كل ما منهم يراد...وكل ذلك بتيسير من الله وتسديده وإرشاده وتوفيقه...مع سياسة صدقت بها أنباء الكتب وادخرت بها المرهفات في الحقب، وحقنت الدماء بإراقة مداد الأقلام وصينت الأعراض وأغنى الكلام السياسي عن الكلام... وتوجهنا والسعادة تقدمنا والميامين تحفنا وصحبة ركابنا الشريف من جيش آيت مرغاد قدر كثير العدد قوي المدد، مشتمل على ألوف من الخيل والأبطال، وليوث الحرب والنزال، إلى أن وصلنا إلى قصر السوق، فوجدنا به جيش خدامنا آيت عطة في انتظار**

جانبنا الشريف لمصاحبة ركابنا السعيد المنيف، وهم في عدد عديد وقوة ما عليها من مزيد، يقربون الأربعة آلاف فارس وكلهم ليوث عوابس، ومعهم من رماة إخوانهم عدد كثير معتبر كأنهم سيل إذا انحدر، فنهضوا مع جانبنا العالي بالله في جموعهم وكثرة عددهم وعديدهم إلى مدغرة، فتبركنا منها بمواطيء الأسلاف وتعاهدنا أمور أهلها بحسن مباشرة وإسعاف، وأنعمنا على شرفائها بعشرين ألفا من الريال...[9].

يستفاد إذن أن آيت إزدك وآيت مرغاد وآيت عطا الذين ادعى الشيخ محمد العربي الدرقاوي أنهم رهن إشارته للقيام بالجهاد بما يتعارض مع سياسة المخزن المهدئة للوضع على التخوم، أثبتوا للسلطان ولاءهم بل حشدوا إمكانياتهم العسكرية لخفر المحلة السلطانية في استعراض قوة رهيب للمخزن وجَّه عبره رسائل إلى من يهمه الأمر داخليا وخارجيا. ومعلوم أن الحسن الأول توفي خلال رحلة عودته من هذه الحركة.

وفي خضم أزمة مطلع القرن العشرين، أُرسل المدني الكلاوي إلى تافيلالت كخيار وحيد أمام مولاي عبد العزيز لفرض الهدوء وإجهاض التعبئة الجهادية التي انخرطت فيها القبائل لمواجهة الفرنسيين في الواحات الشرقية، إدراكا من السلطان بأن خليفته وعمه مولاي الرشيد لم يكن جادا في القيام بمهمة ضبط القبائل بما فيه الكفاية، ولعل ما يكشف عن ذلك ما جاء في تقرير المدني الكلاوي إلى السلطان مؤرخ ب22 شوال عام 1318 فبراير 1901، إذ كتب الكلاوي يقول أنه لما حل بتافيلالت «توجهنا لعم سيدنا مولاي الرشيد وتكلمنا معه فيمن توجه مع (كذا) اتوات من آيت عطة وبني امحمد، فسايرته في الكلام حتى أذعن لتوجيه جماعة من أخوان من توجه يردُّهم بعد أن طلب ما يعطى لهم...والمكاتب الشريفة التي وجدناها عند عم سيدنا مولانا الرشيد للقبائل بقطع النظر عن ضرب الإيالة الشرقية وجلوسهم عند حدهم[10]، فما وجد منهم حاضرا هناك مكناه من كتابه، ومن لم يحضر وجهناه له كفكيك وذوي منيع مع فرسان عشرة، وكتبنا لهم بامتثال أمر مولانا الشريف وليخبرنا بأخبار تلك النواحي على الحقيقة، وعند رجوعهم يطير الإعلام بذلك للأعتاب الشريفة، ومقصودنا من توجيه المخازنية لذوي

(9) الناصري، الإستقصا، ج. 9، ص.ص.202–204 .

(10) أكيد أن احتفاظ الخليفة بالرسائل التي يأمر فيها السلطان القبائل بالكف عن المقاومة يثير أكثر من تساؤل، وكفيل بجعل المخزن يتوجس من خلفيات مولاي الرشيد.

منيع وفكيك أن يسمعوهم الجانبين بأنهم وردوا بمكاتب سيدنا للقبائل المذكورين، ليكفوا عمّا هم بصدده من التشوف لضرب من ذكر أو إذايتهم حتى يظهر أمر مولانا دام علاه»[11].

لكن محاولة الكلاوي ومن ورائه المخزن المركزي لم تسفر عن المبتغى، خاصة أن الضغط الاستعماري ازدادت حدته مسفرا عن انعكاسات خطيرة، فماجت تافيلالت واضطربت أجواؤها، وسرت إشاعات عن نية شرفاء المنطقة دعم مطالب بالعرش منهم، ولعل أوفرهم حظا كان الخليفة مولاي الرشيد[12]، لكن هذا الأخير إدراكا منه لإمكانياته وتقدم سنه ظل إلى حين وفيا للسلطان الشرعي القائم، ثم سرعان ما انضم إلى الخليفة الآخر مولاي عبد الحفيظ في حركته ضد السلطان مولاي عبد العزيز[13].

أسفرت التطورات السالفة عن مخاض عارم تسارعت خلاله الأحداث، خاصة زحف الاحتلال وإطباق القوات الفرنسية على واحة تافيلالت عند بلوغها لمعاضيد سنة 1915 وقصبة تيغمرت في أوائل سنة 1917، ليبرز على مسرح الأحداث زعيمان غريبان عن المنطقة هما مبارك التوزونيني أو سيدي امحمد وبلقاسم النكادي.

لن نخوض كثيرا في ظروف وعوامل نجاح هذين الزعيمين[14]، بقدر ما سنحاول التركيز على دلالات زعامتهما لحركة المقاومة، وطبيعة موقف المخزن أو من بات يتحدث باسمه تجاه زعامتهما. ومما يجدر الوقوف عنده أن الاستعمار حرص على إضفاء الصبغة الشرعية المخزنية على التدخل في تافيلالت، بإشراك الكلاوي الذي

---

(11) نسخة مصورة للوثيقة بمركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني.

(12) Ross Dunn., op. cit. p. 184.

(13) بادر الخليفة مولاي رشيد بإرسال قوات عسكرية لدعم مولاي عبد الحفيظ، وكان ابنه قائد المحلة الحفيظية في الشاوية.

(14) لمزيد من التفاصيل أنظر مقالنا، «زعامة مقاومة تافيلالت بين تأييد القبائل والتورط في الصراعات»، مجلة الذاكرة الوطنية، عدد 4، 2002، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين، الرباط، ص.ص. 135–146 ؛ وكذلك محاضرتنا «جوانب من مقاومة تافيلالت وهوامشها للاحتلال الفرنسي 1900-1934»، المنشورة على حلقات **بجريدة الإتحاد الاشتراكي**، حلقة 1 : عدد 7223 بتاريخ 21 ماي، 2003، ص. 10.
حلقة 2 : عدد 7230 بتاريخ 28 ماي 2003، ص. 10 .
حلقة 3 : عدد 7258 بتاريخ 25 يونيو 2003، ص. 10 .

سهر على التأكيد في مراسلاته على كلمة «المخزن» عند حديثه عن تحركات الفرنسيين العسكرية في المنطقة، وإظهار القبائل المنضوية في صفوف المقاومة كعصاة للمخزن والسلطان. ثم إن الفرنسيين ظهروا بمظهر المنقذ لعائلة خليفة السلطان مولاي المهدي بن مولاي الرشيد، الذي خشي من تهديد حركة التوزونيني للواحة فلجأ مع ابنه محمد وبعض أتباعه إلى حماية جيش الاحتلال المرابط بتيغمرت ثم بقلعة أرفود، حيث وجدهم المقيم العام ليوطي خلال جولة تفقدية للمنطقة سنة 1918، وأبلغهم أن **«الملك مولاي يوسف يأمركم أن تصلوه في الرباط...فكذلك غادرنا أرفود ...وقد ذهبنا نحن على الخيل إلى بودنيب فبشار، فركبنا القطار إلى وهران فوجدة فتازة ففاس فالرباط»**[15].

عقب إجلاء القوات الفرنسية من تيغمرت وسيطرة جيش المجاهدين بقيادة النكادي على تافيلالت وإعلان بيعة التوزونيني سلطان جهاد، سنت الزعامة الجديدة سياسة بطش وتنكيل تجاه الشرفاء العلويين والأعيان والعلماء وكل من فيه رائحة المخزن على حد تعبير معاصر للأحداث، مما يشي بوضع مخطط سعى إلى تدمير النظام الاجتماعي القائم في الواحة بالقضاء على الفئة الاجتماعية السائدة وفرض الرعب والهيبة على الفئات الأخرى قصد إجبارها على الإذعان للنظام الجديد وسادته، وفعلا **«لما رأى أهل تافيلالت ما يصدر من خليفة الفتان[16] وحزبه الطغام الأدران، خشعت أبصارهم وخمر الرعب قلوبهم»**[17]، **«واستأسد على الأرانب وصال»**.

وقد أورد شاهد عيان وصفا بليغا لحدة هذا التقاطب الاجتماعي حين كتب عن تدابير جماعة الزعامة المحلية الجديدة أنهم **«أزالوا أهل العلا من عليائهم وانتزعوا من أصحاب الكِبْر كبرياءهم، فقربوا إليهم كل من يشرب من نَخْبِهم ويتَزَيّى بزيهم من الرعاة الحفاة المشقوقي الأقدام من فصيلة البهائم والأنعام»**[18]، ويزكي المهدي الناصري ذلك حين خلص إلى القول بأنه **«لم يقم بأمور هؤلاء الثوار فيما نشاهد غالبا إلا الحراطين حيثما كانوا في هذه الأقطار وبعض البرابر الفجار، وهم إخوة بلا شك ولا ارتياب»**[19].

(15) المختار السوسي، مصدر سابق، ص.ص.355–356 .
(16) يقصد بالخليفة بلقاسم النكادي وبالفتان التوزونيني.
(17) المهدي الناصري، نفسه، ص.33 .
(18) رسالة من الفقيه محمد بن سعيد الجراري إلى الحاج التهامي الكلاوي، نسخة وثيقة خاصة.
(19) المهدي الناصري، نفسه، ص.167 .

إذا كانت الزعامة المحلية الجديدة قد تمكنت من السيطرة على مقاليد الأمور، فإن طبيعة تدبيرها لحساسيات مكونات الحركة ورهاناتها لم ترق إلى مستوى ما يتطلبه تشابك تلك الرهانات من ذكاء وفطنة، إذ سرعان ما انساقت مع بعض أجنحتها في تصفية الحسابات القبلية والإثنية، وانزلقت إلى استمراء النفوذ والسلطة بإطلاق أيدي جيوشها وقيادها في أملاك الناس وأعراضهم. وفي هذا الصدد يكفي التذكير بأشهر قادة الحركة ممن لا تزال الذاكرة الشعبية بتافيلالت تحتفظ لهم بسوء الذكر، يتعلق الأمر بعلي بن التهامي التازاريني المشهور ببّاعْلي، الذي سارت الركبان بذكر أخباره «**في الظلم والاعتساف ومصادرة الناس وعدم الإنصاف، وشدة الوطأة والإسراف في سفك الدماء ونهب الأموال من الأقوياء والضعفاء، فامتثل الشقي الأمر فبلّغَ مجهودَه في الشر وما قصّر، وكان من عنف السياسة والسبق في القتل على ما لا يخطر في بال ولا عقل، ولا يبلغ وصفه واصف وإن بلغ غاية في النبل. كان قبحه الله لا يصل قصرا من القصور إلا بدأ بقتل إمامهم في الصلاة، ومن لا مغيث له ولا نصير، وينهب الديار ويصادر كل من كان من أهل اليسار، ويبعث بهم وبذخائرهم إلى مخدومه الفتان، وفي كل أسبوع يدخل ببنت مما يختاره لنفسه من بنات الأعيان، ويعبث بالناس ويهين بهم غاية الهوان**»[20].

ومن مظاهر القصور السياسي للزعامة المحلية للمقاومة اقتراف خطإ المحسوبية عندما وفدت جماعة من أهل أنكاد واستئثارهم بمراكز في أجهزة الحركة دون من هم أهل لها من آيت عطا وغيرهم، «**ففسدت النيات من المخلصين حتى صار الفرسان يهربون بخيل النكادي وسلاحه**»[21]، الشيء الذي آل إلى انفضاض أهم القوى القبلية من حول النكادي منذ 1921. يتضح ذلك حين رجع من عملية عسكرية بأعالي غريس، إذ «**وجد القلوب قد نفرت وعنه أعرضت، فنقض عنه أهل أبو عام والمذائب وأهل الجرف وكل من فيه فائدة كأهل الغرفة ومن نحوا نحوهم من آيت خباش ومن فيه معنى زائدة... فلم يبق تحت حكمه صورةً إلا حثالة الحثالة ومن لا معنى فيه من المعاني، كأسافل السفالة وقصر الرساني وأوغاد حراطين إملوان ومن كان مثلهم كأهل دار الزياني**»[22].

(20) المهدي الناصري، **مصدر سابق**، ص. ص. 89-90.
(21) المختار السوسي، **المعسول**، جزء 16، البيضاء 1961، ص. 302، هامش 1.
(22) الناصري، **مصدر سابق**، ص.167 .

أرغمت هذه الوضعية النكادي على التحول إلى طاغية محلي يتزعم جماعة من أتباعه المسلحين أطلق أيديهم في النهب والجباية والتغريم، استفاد من إرجاء الفرنسيين قضية تافيلالت بسبب حرب الريف والصعوبات السياسية التي واجهتها الحكومات الفرنسية المتعاقبة، بحيث لما زحف الإحتلال على تافيلالت في يناير 1932، لم يبق أمام النكادي وأتباعه إلا إخلاء الواحة واللجوء إلى درعة ثم واد نون.